(ست الشام – أخت السلاطين)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتقين تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتقترب بها من عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه.

وقال الإمام أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم وأخلاقهم.

وقال الإمام الجنيد: الحكايات جند من جنود الله يقوي بها إيمان المريدين، فقيل له: هل لذلك من دليل، قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [يوسف:120].

نحن في الخطبة الثانية من سلسلة: **"أعلام من الشام"**، التي أحدثكم في كل خطبة منها عن واحد من أعلام هذا البلد التقي المرابط المبارك الكريم الصابر، عن عَلَم وُلِد هنا أو مرَّ من هنا فعاش حقبة من الزمن أوتوفاه الله في هذه البلدة، والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

وحديث اليوم عن امرأة لقبوها بـ: **(ست الشام)** لبرها بالشام وأهلها، ولقبوها بـ: **(عصمة الدين)** لاعتصامها بدينها وخدمتها للعلم والعلماء، ولقبوها بـ: **(أخت السلاطين)** إذ كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكاً، فكانت أخت الملوك وعمة أولادهم، إنها السيدة:

(فاطمة خاتون بنت الأمير نجم الدين أيوب)

أخت سيدنا صلاح الدين الأيوبي، أخت السلاطين، عصمة الدين، ست الشام.

يقول الإمام الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء": (فاطمة خاتون أخت السلاطين... لها بِرّ وصدقات وأموال وخدم)، ست الشام هي زوجة ناصر الدين بن أسد الدين شِيركوه صاحب حمص، وشقيقة الملك نور الدولة صاحب بعلبك، وشقيقة الملك تورانشاه صاحب الإسكندرية، وشقيقة صلاح الدين الأيوبي سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية محرر القدس، وشقيقة الملك العادل سيف الدين سلطان مصر والشام من بعد أخيه، وشقيقة ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين صاحب اليمن، وشقيقة ربيعة خاتون "الصاحبة" واقفة المدرسة الصاحبية بصالحية دمشق.

ولدت بدمشق، ونشأت في كنف والدها نجم الدين أيوب، وكان من كبار رجالات السلطان نور الدين محمود بن زنكي، وكان عمها أسد الدين شِيركوه من كبار قواده.

وخاتون لقب لكل امرأة محترمة وهذه الكلمة ما تزال متداولة عند العرب والأكراد المسلمين في العائلات العريقة في البلاد العربية .

صرفت ست الشام حياتها جاهها ومالها ووقتها في أمور ثلاثة هي الفائدة العملية لكل رجل وامرأة منا في هذه الخطبة، **أولها**: تربية ابنها، **وثانيها**: رعايتها للضعفاء والفقراء خاصة عند الشدائد والأزمات، **وثالثها**: محبتها للعلم وأهله وإنفاقها عليه.

أما تربيتها لابنها فقد أنجبت ست الشام ابنا وحيداً حسام الدين صرفت جُلَّ همها لتعليمه وتربيته, ربته على الديانة المتينة والأخلاق الرَّصينة وبِرِّ العباد والذود عن البلاد فكان لها ما

أرادت. فامتاز ابنها بالعلم والأدب والشجاعة والكرم بين أقرانه، فقرَّبه إليه خاله صلاح الدين، وكان أفضل أعوانه في معركة حطين سنة 583هـ، ثم أرسله عقب المعركة مع فِرقة من العسكر إلى نابلس ففتحها بالأمان، فولّاه عليها حتى وفاته بدمشق في رمضان سنة 587هـ، وفُجع صلاح الدين بوفاته، وفُجعت ست الشام بوحيدها، ودفنته في التربة المعروفة اليوم بالتربة الحسامية نسبة إليه، جنوب سوق الخجا في نهاية شارع الثورة.

أيتها الأمهات:

إذا وسّع الله لكُنَّ في المال وفرّغ أوقاتكن من الأعمال المنزلية فإن أفضل ما تتقربن به إلى الله تربية أبنائكن وبناتكن، وإنه لعز ما بعده عز أن يكون ابنك منافحاً عن الدين نصيراً للمسلمين مجللاً بالخلق الرزين، وإنها لرفعة ليس بعدها رفعة أن تكون ابنتك حاملة للعلم مكللة بالأدب شبه أمها في الفضل والكرم، والفاجعة الكبيرة للأمهات عندما يهملن تربية الأبناء والبنات وينصرفن إلى جلسات الوداع والاستقبال ومعارض الأزياء والأشياء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**ما نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا من نَحْلٍ أفضل من أدبٍ حَسَنٍ**)) [رواه الترمذي].

وقال ربنا جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6].

قال سيدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم.

أيها الإخوة:

هذا عن تربية ست الشام لولدها، **وأما رعايتها الضعفاء والفقراء** فقد اهتمت ست الشام بالمشاريع الخيرية؛ وأنفقتّ وقتها وأكثر أموالها بعد تربيتها لابنها في خدمة الضعفاء والمحتاجين والمصابين والمنكوبين؛ وحينما انتقلت إلى دمشق، سكنت في دار واسعة قِبْلي البيمارستان النوري، جعلته مقصداً وملاذاً للخائفين من بطش الإفرنج رجالاً ونساء، وكانت تقدم الصدقات لكل محتاج وتغدق في عطائها عليهم، ومما يذكره عنها ابن كثير في تاريخه: (كانت من أكثر النساء صدقةً وإحساناً إلى الفقراء والمحاويج، وتعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك فيفرَّق على الناس). حتى عُرفت بين معاصريها بمحبتها للخير وإيثارها لأهله.

وإنك لتسمع في مثل هذه الأيام عن نساء يبذلن ما استطعن من جهد ومال وجاه في مساعدة المتضررين والوقوف إلى جانب الأسر الوافدة متمثلات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**مَن نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبة من كُرَب الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة، ومن يَسَّرَ على مُعْسِر، يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسلِما سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ، واللهُ في عَونِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عَونِ أَخيهِ**)) [رواه مسلم]. على حين نرى بعض السيدات بل بعض الرجال اليوم يلهو ويلعب غير آبه لمصاب إخوانه وأبناء بلده.

وأما الفقرة الثالثة الأخيرة في سيرة ست الشام فهي محبتها للعلم وأهله وإنفاقها عليه فقد أنشأت مدرستين عظيمتين، هما المدرسة الشامية البرانية والمدرسة الشامية الجوانية.

1) المدرسة الشامية البرانية: -وقد بقي منها اليوم جامع الشامية في سوق ساروجا- أنشأتها سنة 582هـ-1191م، وتعرف بالمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها الأمير حسام الدين. وقد عيّنت فيها خيرة علماء عصرها، واشترطت عليهم ألا يُدرسوا بمدارس أخرى لضمان تفرغهم وتلبية حاجة الطلبة من الاهتمام الكافي. وكان أول من درَّس بها من العلماء الإمام الكردي الشهرزوري, والقاضي شرف الدين بن زين القضاة، وغيرهما من العلماء. وقد أوقفت عليها أوقافاً ضخمة من أموالها.

وحظيت هذه المدرسة، بشهرة كبيرة في بلاد الشام وخارجها وكانت أكبر مدارس الفقه وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافاً. فكانت بمنزلة جامعة من جامعات ذلك العصر

وحتى تضمن الخاتون ست الشام استمرار ما أوقفته على المدرسة الشامية البرانية، ولكي لا يتعدّى عليه أحد، أرسلت وكيلها إلى قاضي القضاة ليحضر إليها بدارها فحضر ومعه أربعون عدلاً من أعيان دمشق، ليشهدوا على أنها أوقفت أملاكها على تلك المدرسة، وبذلك ظلت المدرسة التي عُرفت بالشامية البرانية قبلة للعلم والعلماء طوال العصر الأيوبي، واستمرت حتى العصر المملوكي، فخرّجت الكثير من العلماء والفقهاء والمحدِّثين والمفسرين.

2) المدرسة الشامية الجوانية: يذكر المؤرخ شهاب الدين النويري أنّ الخاتون ست الشام عندما لحق بها المرض جعلت دارها مدرسةً ووقفت عليها وقوفاً وكانت بمحلة العقيبة بدمشق، وقد درّس بهذه المدرسة العديد من العلماء والفقهاء، أمثال: شيخ الشافعية ابن قاضي شهبة، والشيخ تقي الدين السبكي، والشيخ تاج الدين السبكي.

هذه هي ست الشام مربية لولدها وباذلة البرِّ للمحتاجين ومحبة للعلم وأهله.

توفيت ست الشام بدمشق بدارها المقابلة للبيمارستان النوري سنة 616هـ، وودعتها دمشق بجنازة مهيبة تحدثت عنها الركبان فقد سار الناس وراء نعشها بالآلاف وهم يرددون الأدعية لها حيث دُفنت فوق ولدها حسام الدين، ويقال بأن جنازتها كانت فريدة إذ لم تشيَّع امرأة قبلها بمثل ما شُيعت به. لقد كانت من خيرة الأمهات الثريات الوجيهات الداعيات في عصرها كما كان أخوها صلاح الدين من خيرة القادة المسلمين.

فلو كان النساء كمثل هذي لفُضِّلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

أيها الإخوة:

هذه الثلاثة هي الوظيفة العملية من الخطبة لرجالنا ونسائنا:

(تربية الأبناء، وبر الفقراء، ودعم العلم والعلماء).

والحمد لله رب العالمين